أعلنت الدولة العثمانية الحرب على الدول الحليفة في 23 تشرين الثاني 1914. واستبقت الإعلان بإلغاء الامتيازات المعطاة للأجانب على أراضيها وتعديل الدستور العثماني حيث تمّ إلغاء أيّ خصوصيّة معطاة سابقاً لمتصرفية جبل لبنان. وفي السادس من كانون الأوّل، وصل إلى دمشق جمال باشا القائد الأعلى للجيش الرابع، والياً عاماً على مناطق كيليكيا وسوريا ولبنان وفلسطين والحجاز. احتل جيشه جبل لبنان وولاية بيروت معلناً أنّ الدولة العثمانية "أرسلت مفرزة عسكرية للدفاع عن لبنان لدى الحاجة ضد غارات العدو الخارجي وللمحافظة على شرف الأهالي وحياتهم وأموالهم ...".

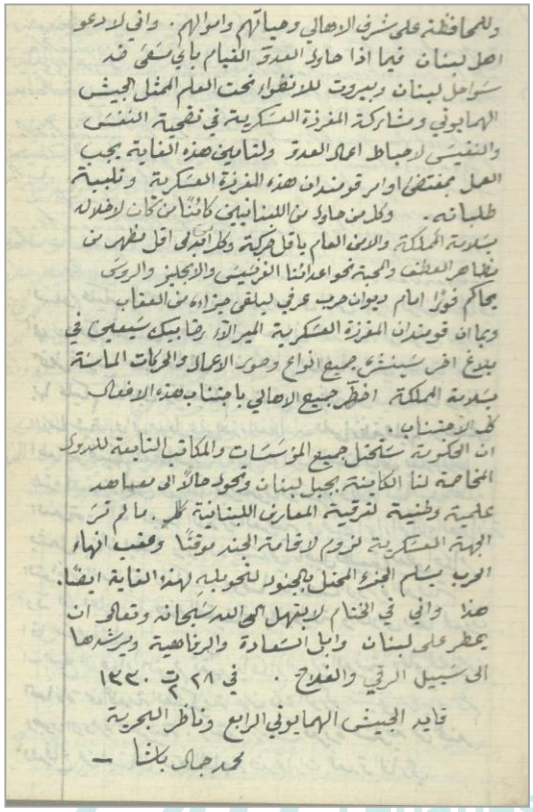

بلاغ من جمال باشا إلى اللبنانيين يطلب منهم الطاعة والوفاء للسلطة
Taoutel et Wittouck, Le people libanias dans la tourmente de la grande guerre 1914 – 1918, PUSJ, 2015, p101

في 1915 فرض العثمانيون التجنيد الإجباري "سفر برلك"على جميع الرعايا. سُمح للمسيحيين دفع بدل مادي قدره 44 ليرة ذهبية للإعفاء من الخدمة، لكن جمال باشا أمر لاحقاً بفرض الخدمة حتى على الذين دفعوا البدل. وعلى امتداد سنوات الحرب الأربعة، عُيّن ثلاثة متصرّفين عثمانيين كانوا جميعهم تحت سلطة جمال باشا الذي تمتع بسلطة مطلقة امتدت على جبل لبنان وولاية بيروت بالإضافة إلى سوريا. أعلن جمال باشا دوره في خطاب ألقاه في دمشق قائلاً "إن طالعي كان القتل ... نُدبت لقتال الناشزين من الأتراك كما عهد إليّ بقتل الناشزين عن الطاعة من العرب". أمرت السلطات العسكرية بتعليق الصحف والمطبوعات ومنعت التجمّعات.

مشهد من إعدام الشهداء الوطنيين

فرض جمال باشا النظام العرفي فأنشأ محكمة عسكرية، في عاليه، حكمت بالإعدام على نخبة من الوطنيين الذين اتهموا بالخيانة العظمى والارتباط بالحلفاء. كان معظمهم يعمل في الحقل الصحافي. وبين 1915 و1916، تمّ اعدام 33 ناشطاً قومياً لبنانياً وعربياً في بيروت ودمشق، وهناك تقارير تشير إلى ان مشهد الاعدام بالشنق كان يتكرر بشكل دائم خلال هذه السنوات.

مع دخول الدولة العثمانية الحرب، تطلّع اللبنانيون إلى مصير جديد في مرحلة ما بعد الحرب لا سيّما أنّ حركة نهضة قوميّة جامعة كانت قد برزت قبيل الحرب. فمع وصول جمعية الاتحاد والترقي إلى الحكم في 1908 وتطبيقها لسياسة التتريك، نشطت حركة مناهضة لها من خلال جمعيات عديدة عملت سراً في معظم الأحيان. تنوّعت مطالب الجمعيات بين المطالبة بالإصلاح السياسي وابقاء الولايات العربية ضمن الدولة العثمانية إلى المطالبة بالاستقلال الذاتي، لكن تعنّت الاتحاديين دفع بالقوميين العرب والاستقلاليين اللبنانيين للسعي إلى أخذ الاستقلال بالقوّة، وإن بمساعدة الدول الأوروبية. ونشطت حركة في بلاد الاغتراب فأسّست جمعيات عملت بنشاط لابراز القوميّة العربيّة وتحرير العرب من ظلم العثمانيين، لكنّ مطالب الوطنيين ورؤيتهم لمرحلة ما بعد الحرب اختلفت. رأى البعض أن يتعاون مع الثورة العربيّة التي أعلنها الشريف حسين في الحجاز ضد العثمانيين والمطالبة بمملكة عربية تضم بلاد المشرق العربي، فانضم فريق من اللبنانيين إلى الجيش العربي بقيادة الأمير فيصل بن الحسين، وكان هذا الجيش يُحارب مع الحلفاء لقاء وعدهم العرب بالاستقلال. رأى البعض الآخر أن يعتمد على دعم فرنسا وحلفائها، وقد تطوّع عدد من المغتربين اللبنانيين في جيوش الحلفاء وخصوصًا في الجيش الفرنسي.

LAH Lebanese Association for History
الهيئة اللبنانية للتاريخ

أعلنت الدولة العثمانية الحرب على روسيا وفرنسا وبريطانيا في أواخر العام 1914. غيّر هذا القرار الأوضاع في مجمل الولايات العثمانية ومنها أراضي لبنان الذي عانى من ظروف صعبة. يستفيض المؤرخون في وصف تلك المرحلة السوداء من تاريخنا التي عانى فيها اللبنانيون الأمرّين فتعرضوا للمجاعة والمرض والتشريد، وفُرض عليهم التجنيد الإجباري والسخرة. إنّما وقع الحرب لم يكن نفسه على جميع اللبنانيين فالكثير من الأغنياء، وبتواطئ مع العساكر العثمانيين، جمعوا ثروات باهظة خلال الحرب. أصبح الأغنياء أكثر غنى والفقراء أشد فقراً فاتسعت الفوارق الاجتماعية بين الأهالي. ساهم القادة العثمانيون في توسيع الهوّة الاجتماعيّة، فلقد تقرّب بعض الأغنياء من الضبّاط والحكّام العسكريين وأغدقوهم بالهدايا الثمينة فكافأهم العثمانيون بغضّ النظر عن مخالفاتهم فتركوهم يحتكرون السلع الضرورية ويغشّون الأقوات، ويُنشئون سوقًا سوداء ترتفع فيها الأسعار ارتفاعًا فاحشًا، وتؤمن لهم ربحاً وفيراً.

ولمّا قلّت المؤن واشتد الجوع في 1915، وبدأ الموت يحصد الأنفس حصدًا، اضطر كثيرون من متوسطي الحال إلى بيع حلاهم وأراضيهم وبيوتهم وأغلى ما يملكون بأبخس الأثمان ليشتروا بها القمح من السوق السوداء ويبعدوا خطر الموت جوعًا عنهم وعن أولادهم وذويهم. وقد عاش بعض هؤلاء إلى نهاية الحرب ليجدوا أنفسهم وقد أصبحوا فقراء مُعدمين، وليروا أن الأغنياء قد ضاعفوا ثرواتهم بما انتزعوا منهم من مال وأرض وعقار.

تحت وطأة الجوع والمرض، أخذ سكان الجبل يتدفقون على بيروت وطرابلس فيقفون في طوابيرلم يبق من قاماتها إلّا الجلد والعظم وهي تفترش الطرقات قرب القصور الكبيرة حيث تقام حفلات للضباط وكبار الموظفين الاتراك ولشركائهم والمتواطئين معهم. ويحكى أنّ بعض القرى خلت من اهاليها الذين قضوا نحبهم او نزحوا عنها بعد أن باعوا رزقهم.

عائلة ملفوحة على جانب الطريق تعاني الفقر والتشرّد

تفاقمت الأوضاع المعيشية خلال الحرب بفعل عوامل عديدة منها هجوم موجات كبيرة من الجراد منذ ربيع 1915 قضت على المزروعات. ويوصف الخوري أنطوان يمين في كتابه **لبنان في الحرب** كيف أنّ الجراد "محا عن أرض بلادنا كلّ أخضر ويابس فتعرّت المروج من مزروعاتها والحقول من خضرتها والبساتين من رونقها والأشجار من ورقها والكروم من عنبها والفاكهة من أثمارها ... ومن تلك الأيام أخذت أثمان الحاجيات تتصاعد تصاعداً فاحشاً دام إلى نهاية الحرب".

موجات الجراد اجتاحت لبنان منذ ربيع 1915

LAH Lebanese Association for History
الهيئة اللبنانية للتاريخ

عرف لبنان في هذه المرحلة حالة مأساوية فمع الفقر والجوع انتشرت الأمراض والأوبئة وساهمت في القضاء على عدد كبير من السكان. تشير التقارير إلى تفشي الزنطاريا وانتشار حمّى التيفوس في النصف الثاني من 1916 الذي قضى على الآلاف من سكان بيروت. كما انتشرت أيضاً أوبئة أخرى كالجدري والهواء الأصفر الذي انتشر في بيروت وفي سائر مناطق الجبل وقضى على الكثيرين. كما ذكرت تقارير أنّ الكوليرا انتشرت في بيروت في 1917.

وانتقلت جراثيم الجرب من العسكر التركي إلى الناس وانتشر القمل فملأ المنازل والساحات والطرق. تفاقم أثر الأمراض في غياب الأدوية والأطباء فالسلطات العثمانية استدعت الأطباء منذ بدء الحرب ووضعت يدها على الصيدليات والأدوية الموجودة فيها. وبين المرض والجوع والغلاء عرف اللبنانيون اياماً سوداء لم يعرفوا مثلها في تاريخهم.

وفقاً لتقرير للمخابرات الفرنسية في أيار 1917، كان يتم اطعام 40 الف فقير في بيروت وأنّ المتصرف عزمي باشا أمر بانشاء مطاعم عامّة في برمانا وعيتات والشويفات وانطلياس وجونية وبيروت وجبيل، وأنّه في هذه السنة كان هناك ما يقارب ملاجئ لألفي يتيم في بيروت.

ساهم الحصار البحري الذي فرضه الحلفاء على الشاطئ السوري والحصار البريّ الذي فرضه العثمانيون على جبل لبنان وفشل استرتتيجية التموين التي حاولوا تطبيقها، بالإضافة إلى جشع تجار القمح والمواد الغذائية الذين مارسوا الاحتكار والغش في تراجع الأوضاع المعيشيّة وانتشار الفقر والمجاعة بين الأهالي. اتخذ العثمانيون خطوات عديدة ساهمت في تفاقم الأوضاع

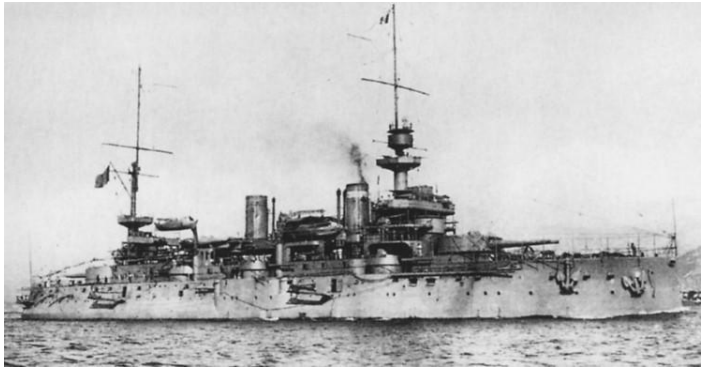

بارجة فرنسية شاركت في حصار السواحل التركية

بدءاً بفرض نظام التجنيد الإجباري "سفر برلك" في 1915 على جميع الرعايا. كما قام العثمانيون بمصادرة الحيوانات ومنعوا الصيد البحري وأخذوا من الناس معظم محاصيلهم لتغطية حاجات الجيش العثماني في المنطقة العربيّة. ولم يكتفوا بذلك، بل فرضوا حصاراً برّياً فمنعوا تصدير الحبوب من المناطق الداخلية إلى جبل لبنان والسواحل بهدف انهاك اللبنانيين واخضاعهم ولمنع وصول بعضاً منها إلى أساطيل الحلفاء المنتشرة في شرقي المتوسط.

كما فرض الحاكم العسكري العثماني جمال باشا الضرائب العينيّة على المحاصيل الزراعية وأهمّها الحنطة، فارتفع سعر القمح وقلّ وجوده في الأسواق، وأمر باستيفاء ضريبة الأملاك مع ضميمة بلغت 50% وضريبة الأرض مع 25% ، وفرض على كل شخص إعطاء ربع ما عنده من غنم وبقر وجمال وسمن وزيت. وقد شملت ضريبة التكاليف الحربية كل شيء مما يقتنيه الانسان أو يستهلكه او يمتلكه حتى عربات الجر ومبيعات المحال التجارية. ومن ناحية أخرى، كانت السلطات العسكرية تعمد إلى قطع الأشجار الحرجية والمثمرة لاستعمالها وقوداً. وفي ظلّ هذه التدابير القاسية، ساهم مجيء الجراد في ربيع 1915 في القضاء على المزروعات فحرم السكان كلياً من محاصيلهم ومؤنهم.

Lebanese Association for History
الجمعية اللبنانية للتاريخ

وضعت السلطات العثمانية يدها على التجارة ومارست المضاربة على العملة والمواد الغذائية وأصدرت عملة ورقية فرضتها على الناس على أنها مساوية للعملة الذهبية، وأجبرت الناس على شراء سندات الحرب يدفعون ثمنها نقداً.

في ظلّ هذه التدابير وجشع المرابين والحصار البحري الذي فرضه الحلفاء واجه سكان المتصرّفية وبيروت المجاعة التي كانت الأسوأ على امتداد الدولة العثمانية. ولقد بدا واضحاً أنّ الحرب كشفت حدود الاكتفاء الذاتي في جبل لبنان، الذي كان يعتمد على التجارة الخارجية لنحو نصف عائداته ويلبي حاجاته من الحبوب واللحوم باستيرادها من البقاع وسائر مناطق بر الشام.

العملة المعدنية والعملة الورقية التي أصدره
العثمانيون تغطية نفقات الحرب ا

كان معظم سكّان المتصرفية قبيل الحرب فلاحين يمارسون الزراعة بأساليب قديمة وبطابع خاص مميز لجبل لبنان ينسجم مع طبيعة الأرض الجبلية. كانت زراعة الزيتون وأشجار التوت الأكثر انتشاراً في جبل لبنان لكن الأهالي كانوا يزرعون أيضاً العنب لانتاج النبيذ، والصنوبر لما يوفرّه من ثمر وأخشاب. أمّا بالنسبة للقمح والحنطة والحبوب، فقد كان إنتاجها ضعيفًا جدًا في أراضي المتصرفية، وذلك لضيق الأراضي وقسوة المناخ. فبعد أن فصل بروتوكول سنة 1861عن جبل لبنان سهول عكار والبقاع والجنوب، أصبح إنتاج الجبل من القمح ضئيلاً لا يسدّ غير قسم صغير جدًا من حاجة أهله إلى هذه المادة الأساسيّة في غذائهم اليومي. وكانت الصناعة ضعيفة لا تؤمن حاجات السكان لذا اعتمدوا على المصنوعات المستوردة من الخارج.

عائلة ضربتها المجاعة في جبل لبنان
من الأرشيف الخاص لإبراهيم كنعان نعوم

كان فلاحو لبنان ومنتجوه يعتمدون على بيع الحرير للمصانع الفرنسية. وعند دخول الدولة العثمانية الحرب، بدأت الأوضاع الإقتصادية تتدهور لأنّ هذه التجارة توقفت لا سيّما أنّ الحلفاء فرضوا حصاراً بحرياً على سواحل شرقي المتوسّط. منع الحصار البحري وصول السلع الأجنبية فارتفعت أسعارها ارتفاعًا فاحشًا، كما تعذّر وصول الأموال من المغتربين إلى ذويهم ما وضع الكثيرين في حالة يُرثى لها من العوز والفقر.

وبدورها ساهمت التدابير التي اتخذتها السلطات العسكرية العثمانية في تفاقم الأزمة فمنذ 1915 منعت قيادة الجيش الرابع نقل الحبوب على اختلاف أنواعها إلى جبل لبنان، وبما أن الجبل لم يكن ينتج كفايته من الحبوب ويعتمد على البقاع وحوران وجوارها لتأمين حاجته، فقد اختفت الحبوب من الأسواق وارتفعت أسعارها ارتفاعًا فاحشًا، حتى بلغ ثمن رطل الخبز ليرة ذهبية، وتعذّر على الفقراء ومتوسطي الحال الحصول عليه، وبدأوا يموتون من الجوع. وكان الناس يتحملون المشقّات والأخطار من أجل تهريب كميّات قليلة من القمح ليردوا بها الموت عن أهلهم وذويهم.

جمعية توزّع الخبز على الفقراء في منطقة البترون في شمال لبنان عام 1916
https://ajdadalarab.wordpress.com/2013/

في 1917، حاول العثمانيون تدارك الكارثة فسمحوا بتأسيس شركة لاستيراد الحبوب وتوزيعها بأسعار معتدلة تحت إشراف القادة العسكريين، لكنّ الخطوة باءت بالفشل بعد تواطؤا العسكر مع أركان الشركة ومُحتكري بيع القمح في السوق الحرّة السوداء فعطلوا أعمال الإعاشة وخلطوا القمح بالبحص والتراب. ، والواقع أنّ أنّ عددا كبيراً من السكان قضى في 1915 و1916 من الجوع والمرض يتفاوت تقديره ما بين 200 ألف و250 ألف نسمة من أصل 400 ألف

نسمة كانوا مجمل السكان. ويصف توفيق يوسف عواد في كتابه الرغيف مشاهد من تلك الأيام السوداء:

> كان يمشي بقدميه المشققتين، وقمبازه الوسخ المقدود، وشعره الطويل المبعثر ... يلتقط عن الأرض ويزاحم القطط والكلاب على الأقذار، والطريق مزروعة من الجانبين بعشرات الجياع امثاله، شيوخاً ونساء وأطفالاً، بعضهم يستطيع المشي، والأكثرون انطرحوا لا يملكون إلا الأنين. (الرغيف، مكتبة لبنان، ص 167)

وفي رسالة مؤرّخة بتاريخ 7 أيلول 1916 يشير رئيس مدرسة عينطورة إلى دور العسكر التركي أنّ "المجاعة المُمَنْهجة لا تزال تفعل فعلها. يبيع الأتراك رطل الطحين بـ12 فرنكا، لكن اذا قرّر أحد شراءه، يستشعر الأتراك توفّر المال على الفور فيطلبون 30 فرنكاً". والوقع أنّ لبنان لم يشهد تاريخه أياماً سوداء كتلك التي عاشها الأهالي في سنوات الحرب العظمى.

LAH Lebanese Association for History
الهيئة اللبنانية للتاريخ

في بدايات القرن العشرين، كان التعليم العام في لبنان الاكثر تقدماً في الدولة العثمانية. كان الإلمام بالقراءة والكتابة واسع الانتشار في بيروت وصيدا وطرابلس ومعظم مناطق جبل لبنان. كان التعليم الابتدائي قد أصبح متاحاً لمعظم السكان بينما اقتصر التعليم الثانوي على الطلاب القادرين على دفع تكاليفه. وتميّز لبنان بوجود جامعتين هما الجامعة اليسوعية والجامعة الأميركية حيث كان الطلاب يتابعون فصولاً في الآداب أوالعلوم أوالطب. وكانت مطابع عديدة، وأهمها المطبعتين الأميركية والكاثوليكية، قد بدأت تنشر كتباً بالعربية وتصدر منشورات وصحف. أطلق المفكّرون اللبنانيّون، وفي طليعتهم بطرس البستاني وناصيف اليازجي وفارس الشدياق، حركة فكرية وأدبيّة من أجل نهضة العرب القوميّة. ولقد جاءت هذه النهضة الثقافية في ظلّ التحديث الذي أدخلته "التنظيمات" التي طبّقت على امتداد الدولة العثمانية.

بعد انضمام تركيا إلى الحرب، ولاضعاف دور فرنسا وانكلترا العدوتان، اتخذ المتصرّف أوهانس باشا قراراً بوضع اليد على المدارس الأجنبية، وأقفلت الجامعة اليسوعية وسلّمت إلى الصليب الأحمر. كما حاولت السلطات التركية فرض اللغتين التركية والألمانية عوضاً عن الانكليزية في مدارس الأميركان، وطلبت تغيير اسم مدرسة عينطورة إلى "المدرسة العثمانية".

في إحدى الرسائل التي كشف عنها المؤرخان توتل ويتوك في الذكرى المئوية للحرب، يذكر رئيس جامعة القدّيس يوسف الأب جيرار دومارتنبريه كيف أمره "قائد وعناصر الشرطة العثمانيّة، في 8 تشرين الثاني 1914، أيّ بعد أيّام قليلة من بدء العام الدراسيّ، بإخلاء دير الاباء اليسوعيّين في غضون ساعتين وتسليمه المفاتيح، وكان هناك 70 إكليريكيًّا و300 تلميذ و60 رجل دين، منهم من كان عجوزًا ومقعدًا. وتوجّهت في اليوم نفسه إلى والي بيروت في محاولة لتأجيل تنفيذ القرار، فأجابني ببرودة: "أنا مستاء ممّا يحصل معكم، لكن ولحظّكم العسير، أنتم حلفاء أعدائنا التقليديّين، ونحن في حالة حرب". وتحوّلت بعض المدارس إلى مياتم للأولاد المشردين والمعوّقين والأيتام وبدأت توفّر تعليماً مهنياً ويدوياً يساعد هؤلاء الأطفال على تأمين مصدر رزق أثناء الحرب.

LAH Lebanese Association for History
الهيئة اللبنانية للتاريخ

كلية طب الاسنان التي افتتحت في 1910 ومانت الأولى في منطقة الشرق الأدنى
من المجموعة الخاصة بالجامعة الأميركية في بيروت

أطفال تجمعوا في ميتم خلال الحرب